«حول طبيعة القومية العربية وموضع الولاء الشعوبى»

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربيًا .

نعم يا بُنى ، فالعروبة هى جزء من حياتى ، وهى محور قناعتى ، ومصدر فخرى وكبريائى وسندى فى الصراع الذى قبلته وتحملت ما يعنيه من مخاطر ومنازلات ، إننى أعلم جيدًا أننى أنازل خصومًا لا يملكون من عناصر القوة إلا القليل ، قوتهم الحقيقية هى ذلك الضعف الذى ألمّ بأمتنا فى لحظة معينة . ولكن هذا الضعف سوف ينقشع وعندئذ سوف تبرز صلابتنا التاريخية وإرادتنا القاهرة التى لابد وأن تسيطر على قصة الوجود الإنسانى .

عندما تنظر يا بنى إلى الغابة فلا تقصر نظرتك على الشجرة التى أمامك ولكن عليك أن تحد بصرك لتحتضن كل ما حولك ، هنا تكمن حقيقة الدلالة ، أعداؤنا كثيرون وقد تعودنا الاستهانة بهم ، وليست هذه من الحنكة السياسية ، ووظيفة جيلنا هى أن يتعلم من أخطاء أولئك الذين سبقونا ، نحن القوميين العرب قد آمنا بأن ما يجب علينا فى الوقت الحاضر هو فقط أن نبنى أمة جديدة قوية بعطائها ثابتة بإيمانها ، صلبة بترابط حاضرها بماضيها ، كم أُلقيت علينا الأوحال ولكننا سوف ننظر إلى ما حولنا بصمت واحتقار وكبرياء ، وسوف نكز على أسناننا انتظارًا للحظة الانتقام ، وهى قادمة ، وعندئذ سوف يعرف كل منا من هو المنتصر الحقيقى ؟ ومن هو الذى سوف يسجل التاريخ اسمه فى قائمة البطولة والشرف ؟

العروبة السياسية هى رداء فكرى يغطى ويفسر كل ماله صلة بعلاقة من يقيم على الأرض العربية بذلك الوجود المعنوى المجرد ، والذى تعودنا أن نسمية بالقومية العربية ،

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد **108**، فى **3** حزيران - يوليو- **1985**، ص **26** وما بعدها .

obeikandl.com

هو تطبيق من تطبيقات المفهوم القومى الذى ساد الوجود السياسى ، وسيطر على جميع الحركات السياسية منذ الثورة الفرنسية وحتى اليوم ، ولكنه رغم ذلك يملك خصائصه المستقلة والمتميزة . والذى يعطيه ذلك الرصيد الذى يجعل أى محاولة للتشبيه بين القومية العربية والقوميات الأخرى لغو لا موضع له ، وقد سبق وطرحنا أهم تلك الخصائص **وجعلناها تدور حول حقائق خمس كل منها يضفى ذاتية واضحة على التطبيق العربى للمفهوم القومى :**

أولاً : فالقومية العربية قديمة تعود إلى قرابة عشرين قرنًا من الزمان خلافًا لأى قومية أخرى عرفتها الإنسانية المعاصرة .

ثانيًا : وهى حقيقة كلية حيث البعد السياسى ليس سوى أحد مداخلها ، فالقومية العربية حقيقة أخلاقية وحضارية واقتصادية وسلوكية فى آن واحد .

ثالثًا : الوظيفة الحضارية للعروبة السياسية بدورها تقدم عنصرًا آخر يختلط فيه المفهوم القومى بالحقيقة الدينية وهى الإسلام .

رابعًا : كذلك فإن هذه العروبة تملك وزنًا دوليًا ، واكتمالها لابد وأن يؤدى إلى اختلال علاقة التوازن بين القوى الدولية ، بما يعنيه من ضرورة إعادة تشكيل علاقة التوازن هذه .

خامسًا : وهى بطبيعتها مركبة : إنها أى المفهوم العربى للقومية السياسية - تحتضن العديد من الحقائق الاجتماعية التى قد تختلط بالبعد السياسى ، والتى تتابع فى تصاعد مستمر ، معبرة بهذا عن علاقة تبعية داخلية فى الترابط بين المفاهيم ذات نتائج عديدة وحاسمة .

فهم هذه الحقائق ضرورة أساسية للإدراك الواعى بطبيعة وخصائص العلاقة السياسية المترتبة على الانتماء القومى وحدود تلك العلاقة من حيث آثارها ونتائجها ، وبصفة خاصة عندما يقدر لها الصدام أو التعارض مع أى علاقة اجتماعية أخرى . فلنقف قليلاً إزاء [أخطر] هذه العناصر ونقصد بهذا العنصر الأخير :

أ - العلاقة القومية فى صورتها التقليدية المتداولة ، والتى عرفتها التقاليد الغربية الأوربية وعنها نقلت إلى جميع الخبرات الأخرى المعاصرة هى علاقة بسيطة ومباشرة ، بل إنها تستمد من هذه الصفة - أى من كونها مباشرة - منطقها وقوتها .

فالقومية عندما برزت فى المجتمعات الأوربية وسادت التطورات السياسية كانت تقوم على مبدأ رفض أى علاقة أخرى من الممكن أن تزاحم العلاقة بين المواطن والدولة .

1- فهى ترفض علاقة المواطن بالسلطات الأخرى أيا كانت صورتها ، وتصل فى هذا

إلى مبالغات سوف تخضع فى مرحلة لاحقة لنقد عنيف ، فهى تلغى اللامركزية الإدارية من جانب وتحطم التجمعات المهنية من جانب آخر ، بل تجعل من قيام التجمعات العمالية جريمة قد تصل عقوبتها إلى الإعدام . وهى تفرض على الكنيسة أن تتقوقع على نفسها وألا يكون لها أى تواجد سياسى ، ومحور ذلك أن المفهوم القومى كما صاغه فقه السياسة ، فى بداية القرن الثامن عشر يأبى تعدد العلاقات السياسية ، أو التزاحم فى العلاقة السياسية بين المواطن والدولة ، وأى علاقة أخرى إنها علاقة وحيدة مطلقة مباشرة لا تعرف الوسيط ولا تقبل التعدد وترفض المزاحمة ولا تسمح بالتعايش وتأبى إلا عدم المنافسة .

2 - وهى تبعًا لذلك تجعل من وحدة النظم القانونية أحد مظاهر القومية السياسية الوضع الداخلى لا يحتمل تعددًا فى الحلول **ولا يقبل تنوعًا فى النظم ، الدولة واحدة ، والولاء واحد ، والنظام القانونى واحد ، والجزاء واحد لا يتعدد ولا يتنوع .**

التقاليد العربية تنطلق من مفهوم متناقض ، ومن ثم فهى تختلف من حيث جوهرها إنها تحقق الوحدة من خلال التعدد . فالوحدة السياسية ، وتبعًا لذلك العلاقة القومية ، لاتمنع من تعدد علاقات المواطن بالدولة ، وبالمجمتع السياسى ، ولكن كل علاقة يجب أن يكون لها مستواها ، وأن تتحدد على هذا الأساس حدودها ومدى فاعليتها ، ومن هنا تبرز حقيقة التداخلات بين عناصر الجسد السياسى .

أولاً : فهناك العلاقة الطائفية ، والتى تنبع من العلاقة الدينية بين المواطن والطائفة الدينية التى ينتمى إليها كل مواطن يملك انتماؤه الدينى ، والانتماء الدينى قناعة وإدراك و«الأمة الإسلامية » تتكون من العديد من المذاهب والفرق ، كذلك فمقتضى التسامح الإسلامى هو ترك المواطن حرًا فى قناعته ، ومن ثم فى عقيدته ، لكم دينكم ولى دين ، ومن ثم الانتماء إلى غير دين الأكثرية أمر تتقبله التقاليد العربية ، فمفهوم التسامح الإسلامى يسمح بالاحتفاظ بدين الآباء وبأن يكون لذلك نتائجه على أن ذلك الولاء الطائفى قاصر على العلاقة الدينية المقيدة بذلك الانتماء الطائفى ، بحيث لا يرتفع ذلك الولاء إلى حد التعارض أو التناقض مع العلاقة الكبرى التى تربط المواطن بالأمة والجسد السياسى إنها مقيدة بمجموعة من القواعد التى تكاد تعبر عن ذلك ، الذى نسميه اليوم بالنظام العام أى مجموعة القواعد التى تمثل الحد الأدنى للتماسك السياسى بين عناصر الجسد الكلى بغض النظر عن التنوع الطبقى أو الفئوى أو الطائفى .

ومعنى ذلك :

1 - أن الممارسات المرتبطة بالطقوس الدينية يجب أن تتم ، بحيث إن أحيطت بعلانية

معينة لا تؤدى تلك العلانية إلى خدش الحياء العام لمجتمع تسوده مفاهيم وقيم السيادة الإسلامية .

2 - أن الولاء الطائفى يظل دائمًا فى نطاق العلاقة الدينية المرتبطة بالتبعية للطائفة الدينية لا تتعداها ، وبحيث يجب أن ينصهر ذلك الولاء فى خاتمة الأمر فى تلك العلاقة الأكثر اتساعًا ، والتى تضم وتحتضن الوجود الطائفى ذاته ، أى علاقة الأمة .

ثانيًا : ثم هناك العلاقة الشعوبية ، الدولة العربية لم تقم على أنقاض المجتمعات الأخرى ، لم تحطم لتبنى وإنما جاءت لتكمل البناء ، اعترفت بما قدمه السابقون طالما كان لا يتعارض مع مبادئها وسارت على الدرب الذى سلكه من سبقها من بناة الأمم والشعوب قراءة البيرونى عامرة بالتعاليم بهذا الخصوص وهى تلك الدوله العربية يعترف فقهها حتى بالتشريعات السابقة على نظامها القانونى . مفهوم « شرع من قبلنا» ليس مجرد كلمة تطلق، ولكن نظام متكامل فى الفقه التشريعى الذى أقام صرحه بناة الشريعة الإسلامية ، وهى لذلك قبلت تقاليد وتراث الحضارات الأخرى ، التى سادت الشعوب التى غزتها ، هذه العلاقة الشعوبية لا تعنى أكثر من درجة من درجات الولاء الاجتماعى للخلية الأولى ، التى ينتمى إليها المواطن ، ولكن هذا الولاء الاجتماعى يجب أن ينصهر فى ولاء أكثر اتساعًا وهو الولاء السياسى القومى ، حيث تصير العلاقة وقد اتسعت لتحتضن جميع أجزاء الأمة العربية .

ومن ثم :

1- علاقة الولاء الشعوبى بدورها علاقة تابعة تتحكم فى جميع عناصرها علاقة الولاء القومى حيث تتحد العلاقة بأنها ولاء للأمة .

2 - علاقة الولاء الشعوبى رغم ذلك تمثل درجة أكثر علوًا من الولاء الطائفى ؛ بحيث أن هذه الأخيرة تتبع وتنصهر فى دائرة الولاء الشعوبى ولاتتجازوه .

ثالثًا : ثم يغلف كل ذلك ويضمه ويحتويه الولاء القومى : ولاء للأمة وليس لشخص الحاكم ، ولاء كلى ومطلق فهو من جانب يضم ويحتوى جميع أنواع الولاء الأخرى ومن جانب آخر لا يعرف أى قيد أو استثناء .

ب - مفهوم الولاء القومى وعلاقته بالولاء الشعوبى يثير مفهوم الشخصية الحضارية هذا المفهوم - الشخصية الحضارية - كثيراً ما يطرح على أنه تعبير عن تعارض ، إن لم يكن هدمًا للمفهوم القومى أو للعروبة السياسية ، والنموذج الواضح بهذا الخصوص هومصر ، وإن كان الموضوع قابلاً لأن يثار فى أكثر من تطبيق واحد .

ما معنى الشخصية الحضارية ؟ وهل استقلال الشخصية الحضارية يعنى رفضًا للقومية العربية ؟

كلمة الشخصية الحضارية اصطلاح يبرز أساسًا من خلال المناقشات العديدة حول حقيقة العلاقة بين مصر الفرعونية ومصر العربية ، هل نحن بصدد نموذجين كل منهما مستقل عن الآخر ؟ أم أننا إزاء واقع واحد يعكس استمرارية ثابتة تؤكدها تلك الطبيعة المتميزة التى تملكها مصر كشخصية حضارية ؟ ، المشكلة - وكما سبق وذكرنا - يمكن أن تثور بدلالات مختلفة بصدد أى مجتمع شعوبى فى الوطن العربى ، حتى تونس ورغم استئصال وجودها الحضارى فى القرن الثانى قبل الميلاد من الجانب الرومانى ، فإن تاريخها السابق على الفتح العربى يملك تلك الذاتية المستقلة التى تسمح له بطرح مثل هذا التساؤل. عودة إلى كيف أثير هذا الاستفهام ، ومن خلال استقراء أدبيات الفكر السياسى ، وبصفة خاصة كتابات **طه حسين** وردوده المعروفة أثناء حكم جمال عبد الناصر ، وعقب الانفصال بين مصر وسورية، فإننا نستطيع - بقناعة كاملة - أن نؤكد حقيقة أساسية : **الفتح العربى هو تعبير عن صفحة جديدة فى تاريخ المنطقة ، حيث حدث انصهار حضارى من جانب ، وبلورة لوظيفة قيادية من جانب آخر فى نموذج جديد للوجود السياسى ، لم تقتصر نتائج ذلك الفتح على تغيير اللغة واستقبال وسيادة نظام جديد للقيم** ، بل تعدى ذلك حتى المظاهر التعامل الحركى مع مختلف أجزاء الجسد والكيان المصرى كحقيقة متكاملة ، فعاصمة مصر لم تعد تقبل أن تتمركز على شاطئ البحر المتوسط كما كانت فى عهد البطالسة وأضحت تأنف أن تهرب إلى أعالى الصعيد كما كانت تقاليدها الفرعونية ، وإذا بها تتحرك إلى وسط الجسد حيث الالتقاء بين الدلتا والصعيد ؛ لأنه هذا الموقع هو الذى يعنى من جانب آخر اللقاء الحقيقى بين المشرق العربى والمغرب العربى .

من الذى فى مصر - ومنذ الفتح العربى حتى اليوم - يشعر بأن أجداده الحقيقين هم الفراعنة ؟ من يعرف اللغة الفرعونية ؟ من يتحدث ويعود إلى النصوص الفرعونية ؟ وبصفة خاصة فى الفترة الحديثة ، عندما غزا نابليون مصر ، من ذا الذى كان يتذكر أن الفراعنة هم أجدادنا وأجداد أهل هذه المنطقة ؟ ألم تكن اللغة مجهولة كلية حتى عُثر على حجر شامبليون وأمكن فك رموزها ؟ مما لا شك فيه أن مصر هى استمرار للتاريخ الفرعونى[1]

(1) القول بأن مصر فرعونية قول مردود ، مبنى على الجهل بالتاريخ ، فشعب مصر ينتمى فى الأصل إلى ذرية الناجين من الطوفان مع نوح عليه السلام . (أى المسلمين) . ولما فسدت العقائد وعُطلت الشرائع وفشت المظالم ، قيّض الله لمصر رسولاً مسلمًا يدعوها إلى الإسلام وهو يوسف عليه السلام ، قال تعالى : ﴿**رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السمٰوات والأرض أنت ولىى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين**﴾ [يوسف : 101] . وفى مصر كان ميلاد ومبعث=

ولكنها عقب الفتح العربى أضحت تمثل شخصية مستقلة انقطعت علاقتها التاريخية بما سبقها أو تحددت بل إن هذه العلاقة لم تنقطع فجأة . إن التطورات التى سبقت هذا الفتح وخلال ما لا يقل عن خمسة أو ستة قرون إنما تتابعت بالأحداث لتعد مصر للدور الجديد الذى كان على مصر أن تلعبه . مصر الفرعونية المنغلقة على نفسها أضحت مصر العربية التى فتحت ذراعيها تقود وتوجه الأمة العربية ، استمرارية منطقية وظيفة إقليمية جديدة وعى وضمير جماعى بتلك الحقائق .

والخلاصة أن الشخصية الحضارية مفهوم لا يتعارض مع المفهوم القومى للعروبة السياسية ، تصور عكس ذلك هو تعبير عن خطأ فكرى وقع فيه طه حسين وأمثاله .

ماذا تعنى الشخصية الحضارية؟ إنها تعبير عن تضافر وانصهار حقائق ثلاث أساسية :

أولاً : وظيفة إقليمية .

ثانيًا : استمرارية تاريخية .

ثالثًا : وعى وضمير جماعى .

الوظيفة الإقليمية ويُقصد بها أن منطقة معينة أو كيانًا معينا لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا من خلال القيادة الفعلية لإقليم معين ، حيث بقدراته وبموقعه يكون قادرًا على أن يكتّل ذلك الإقليم خلف قيادته ، استمرارية تاريخية تعنى أن المتغيرات الجغرافية والديموغرافية لتلك الوظيفة الإقليمية إنما تنبع من ذلك الواقع المكانى وخصائصه ، وأنها بهذا المعنى لتتكامل لابد وأن تمر عبر مراحل متعددة .

الوعى والضمير الجماعى يدور حول القيادة القادرة على الشعور بوظيفتها وتحمل مسؤولياتها ، مصر بهذا المعنى لم تملك وظيفتها الحضارية إلا فقط مع الفتح الإسلامى ومع الالتقاء العربى ، بل إنها كان عليها أن تنتظر قرابة ستة قرون قبل أن يقدر لها الإطار الذى يسمح لها ويفرض عليها أداء تلك الوظيفة ، مصر فى العهد الفرعونى لم تكن تؤدى أية وظيفة إقليمية : إنها متقوقعة على نفسها ، إنها سيدة الكون فى عظمة وشموخ ، ولكن باستعلاء وعنصرية ، العالم من حولها لا يعنيها لأنها غنية وسط عالم فقير ، متقدمة وسط

= موسى عليه السلام ليعيد شعب مصر إلى الإسلام قال تعالى : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [يونس : 84] . وذلك يعنى أن الحكام الفراعين قد انحرفوا بعقائد الناس عن الإسلام ، لكن يظل المجتمع الإسلامى هو الأصل ، والفرعونية انحراف عن الأصل ، لذلك كان القول بأن مصر فرعونية . وهذا خطأ فاضح وقع فيه الكثيرون نتيجة قراءة التاريخ المزور . راجع كتاب « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ تاريخ الأمة المسلمة الواحدة » د. وفاء محمد رفعت وآخرون / دار الوفاء المنصورة .

عالم متخلف ، كبيرة وسط عالم صغير ، عقب الفتح العربى تحولت مصر إلى أحد أقاليم الامبراطورية الجديدة ، وظلت كذلك حتى سقطت بغداد ، فكان هذا إيذانًا بتحول الراية التى تحملها القيادة العربية من أقصى المشرق إلى قلب القلب ، المجتمع العربى الذى كان يعلم ، بوعى جماعى لم يستطع أى فيلسوف سياسى أن يعبر عنه أن قوته فى تماسكه ، وأن مصدر سيادته هو مبدأ التضامن . قدم فى تاريخه خلال القرون الأولى نموذجًا واضحًا لتلك الحقيقة ، فالراية التى تحملها اليد العربية تنقلت بين عواصم القلب تبعًا لكل موقف وهذا التنقل هو الذى أعد مصر لوظيفتها الإقليمية ، بدأت القيادة فى عهد الرسول ﷺ فى وسط شبه الجزيرة ، ثم انتقلت مع معاوية لتطل على البحر الأبيض المتوسط إيمانًا بخروجها لعالم الحضارات الكبرى ، وعقب ذلك انتقلت إلى بغداد ، والإرادة العربية تتجه للفيضان فى الأرض الملحدة وسط آسيا ، ولكن عندما برز الخطر واضحًا عقب غزو «هولاكو» لبغداد ، ودخلتها جحافل التتار كان لابد وأن تنتقل هذه القيادة إلى القاهرة ، وكان لا بد وأن تتصدى القاهرة إلى مخاطر الاستئصال للحضارة العربية ، ومنذ تلك اللحظة فقط تبلورت الوظيفة الحضارية الإقليمية لمصر العربية .

ولكن متى نستمع إلى صوت[1] التاريخ .

(1) الطريق إلى البيت المقدس ، د. جمال عبد الهادى ، ج ١ ، دار الوفاء .

obeikandl.com